

دراسات في الآداب الأجنبية

فن القصة عند هنري جيمس

لقلم الدكتور حقيته رمضان



ولعل جيمس نفسه كان يرد على هذا الادعاء عندما اجري على لسان احد ابطاله :

« انني اوجد حيث يوجد الشعور - انني ذلك المخلوق العجيب »
« الفنان صاحب الحساسية المنطلقة التي لا تعرف حدودا »
ولكن هذه الحساسية لا تخلو من تحليل ذهني عميق خاصة في الروايات التي انتجها في اخريات ايامه .

وهنري جيمس - ككل فنان اصيل يتخذ من الواقع مادة تقوّم عليها رواياته . وهو ينظر الى الامور نظرة واقعية ويستلهم مثله العليا من عالم الواقع لا من تلك العوالم « الرومانسية » ، التي كانت طابع الادب الغربي طوال القرن التاسع عشر . والصورة التي يرضها للمجتمع البورجوازي الاوروبي لا تقل واقعية عن تلك التي عرضها بلزاك وفلوبير وبروست .

ان واقعية هنري جيمس تتصل بسيكولوجية الافراد والجماعات . ولكنه حين يعرض للرغبات والدوافع لا ينتهج منهجا علميا تحليليا كما شاع في بعض الوان القصة الغربية التي انتشرت في القرن التاسع عشر ، واعتمدت على دراسات فروبير ويونج وغيرهما من علماء النفس . ولكن جيمس اعتمد على الابداع والرموز الغامضة التي تشير من بعيد الى اغوار النفس البشرية في اعماق اللاشعور . فهو لا يعرض فلسفته وافكاره بطريق خطابي مباشر بل يضمن هذه الفلسفة بطريق غير مباشر تاركا للقارئ فرصة استخلاصها من سلوك ابطاله واحاديثهم والبيئة التي تجري فيها احداث ووقائع القصة .

ونحن نلتقي في كتاباته دائما بما يسميه « الرغبة في الحياة » . ويعني بهذا ، الادراك الكامل الذي يساعدنا على ان نحيط بما في الحياة من الوان جميلة حية دافقة . وهو يطالبنا دائما بان نحيا حياتنا فيقول في قصة « السفراء The Ambassadors » :

« استمتع بحياتك. قدر ما تستطيع فانه اثم كبير الا تفعل ذلك. »

« واذا انت لم تحي فما الذي يمكنك ان تفعله ؟ »

والحياة عنده فرص نفنتها . فهي مليئة باشياء يجب ان تتحقق في الوقت المناسب اذا كانت تستحق على الاطلاق ، والا فاننا نفقدنا الى الابد . واذا كان الانسان يجب ان يحيا حياته ، فهو لن يحقق ذلك الا اذا تمسك بحريته . ان الانسان ، في فلسفة جيمس ، يتمتع باحساس بالحرية وعليه الا يقتل هذا الاحساس . وقصته « صورة سيدة » تعتبر من اعرق القصص الادبية التي تؤكد ان الحرية صفة مجردة متصلة في جوهر النفس البشرية .

ولكن هذه الرغبة الملحة في الحياة ، يشوبها احساس بالوت والفاء . فالحياة تقود صاحبها الى لون من الوان الاستشهاد . وشخصياته الفاضلة ، وهي تبذل قصارى جهدها كي تحقق حياة طيبة ، تتحقق ، في النهاية ، انها اسمى من ان تعيش في هذا العالم . والحرية .

« انني اعشق حريتي . واذا كان هناك شيء في العالم اتمسك

به فهو استقلال ذاتي . »

هذه الصيحة من اجل الحرية والاستقلال الشخصي ، والتي أصبحت شعارا ينادي به ابطال القصص في الادب الغربي المعاصر ، وصارت عند البعض فلسفة وعقيدة . نلتقي بها في كل صفحة من كتابات « جان بول سارتر » ، « والبير كامب » و « جان انوي » ، رددتها قبلهم « ايزابيل آرشر » في اواخر القرن التاسع .

وايزابيل آرشر هي بطلته رواية «صورة سيدة Portrait of a Lady» اعظم ما خطه قلم هنري جيمس الكاتب الذي نتناول اعماله في هذا المقال . عاش هنري جيمس عند ملتقى قرنين . فهو قد ولد في عام 1843 وتوفي في عام 1916 ، كتب خلال خمسين عاما ما يزيد على الثلاثين رواية طويلة . وعلى يديه حققت القصة الامريكية نضجا سريعا لم تصف عليه الا القليل حتى وقتنا الحاضر . فقصص هنري جيمس ، باجماع الاراء ، تحقق كمالاتها لا يجارى . وانه لمن المفارقات العجيبة ان كاتب يولد في العالم الجديد في امريكا وفي حقبة كان الامريكيون خلالها منصرفين الى التوسع المادي الطرد . ويرحل هو الى العالم القديم ، يرحل الى اوربا ليرسي القواعد التي سارت عليها القصة الغربية في القرن العشرين من بعده .

لقد كرس هنري جيمس حياته كلها لتحقيق هذه الرسالة، وسرعان ما اصبح من اكبر علماء الفن . وصارت له نظرية شاملة امتطاع هو نفسه ان يطبقها تطبيقا عمليا وبتفوق بعيد المدى . وانه وان كانت اعماله لم تلق حظها مما تستحقه من التقدير الجماهيري ابان حياته الا ان اثاره اخذت تمتد وتزايد - حتى بعد مماته - حتى اطلقوا عليه اليوم ابا القصة الحديثة .

ولكن ، ما هي تلك الرسالة التي كرس لها هنري جيمس حياته ؟ هناك جمهرة من النقاد ترى في هنري جيمس رجلا يجلس الى مكتبه ليخط روايات طوال بلا شعور وبلا احساس . انهم يعتبرونه عقلا بلا جسد وآلة كاتبة تخلق اشخاصا جامدة بلا حياة ، تدور حولها احداث قصص خلت من العاطفة . والكاتب الشهير « برنارد شو » واحد من هؤلاء . فقد قال ذات مرة : ان هنري جيمس تناول الحياة فاضغع فيها العاطفة للعقل وللذوق الفني المتحجر .

ويمكننا ان نرد على ذلك فنقول ان برنارد شو كان في الحقيقة يتحدث عن نفسه اكثر مما يتحدث عن كاتبنا الذي استطاع ان يقدم لنا اعمالا تتأجج فيها العاطفة الصارخة . ومن امثلة ذلك « الوحش في الغابة The Beast In The Jungle » ، ومواقف تصور ما يتعرض له شاب مراهق من الوان العذاب اثناء محاكمته في قصة « التلميذ The Pupil » وشخصيات تضطرم فيها العواطف

وتتبلور مثل ديزي ميلر .

يلي سنتخذ من قصته « صورة سيدة » مثلا نرى فيه كيف طبق جيمس فيها آراءه ونظرياته تطبيقاً عملياً وجاء العمل الفني متكامل البناء، يمكن ان يكون نموذجاً يحتذى .

صورة سيدة « The Portrait of a Lady »

نشرت هذه القصة سنة 1891 وتناول فيها جيمس نفس الفكرة التي يؤمن بها وهي اختلاف النظرة الأمريكية للحياة عن النظرة الأوروبية لها . الا انه تناولها هذه المرة بفهم أكثر عمقا وانضح خبرة . كما عقد المقارنة بين الحياة الأمريكية الناشئة ببساطتها وسذاجتها وبين الحضارة الأوروبية العريقة والمليئة بالشعور والانام تفرق فيها الأمريكيين الإبرياء. كما تعرض فيها لمبدأ هام كان ولا زال يشغل الأدباء وهو هل الفن للفن ام الفن للحياة .

تدور حوادث القصة حول فتاة أمريكية شابة تواجه الحياة وهي تؤمن بالاستقلال الذاتي والحرية الشخصية . قابلتها عمته في أمريكا وتلاحظ فيها « الرغبة في ان تحيا » وهي تعاني من الاحساس « بمجرد الوجود mere existence » ولا تستمتع بالحياة اذا هي ما بقيت على فقرها في أمريكا . وتصحبها عمته الى إنجلترا حيث تعيش مع زوجها وابنها رالف . ويعجب رالف بجمال ابنة خاله وبذكاها وطموحها، فاراد ان يحقق لها ما تصبو اليه نفسها بان جعل اباه يوصي لها بمعلم نصيب ابنه رالف من التركة اذ كان مصدورا ويشعر بدنو اجله .

ثم تسافر ايزابيل آرثر مع عمته الى أوروبا عقب وفاة والد رالف ، وتقابل أزموند في فلورانس الذي استطاع ان يجذبها اليه ويشير شفقتها ويوهمها بحبه لها وذلك بعد ان اغرته مدام ميرل بثراء ايزابيل. واخيرا تقبل الزواج منه بعد ان اثارت ابنته فيها كومان الاسى اذ كان ابوها ينظر اليها كما ينظر الى مجرد قطعة فنية متكاملة ، فقتل فيها كل مقومات الحياة .

وتتابع الحوادث فنرى ان ايزابيل تصب في حياتها بعد ان اكتشفت حقيقة زوجها الذي اراد ان يجعل منها احدى التحف التي يهوى جمعها والتي تملأ بيته . كما اكتشفت ان اوزموند لا يشعر بشيء سوى بالفن المجرد من الحياة . ويزيد الطين بلة انها تقف على حقيقة زوجها وانه لا اخلاق له اذ تعلم ان مدام ميرل هي في الواقع ام ابنته غير الشرعية. تعود ايزابيل الى رالف في إنجلترا فتجده يعاني سكرات الموت ويكتشفان حب كل منهما للآخر . واذا كان رالف سيموت فان ايزابيل سوف تعيش على هذا الحب . ويموت رالف وتفرق ايزابيل في دوامة من الحيرة فيما يجب عليها ان تسلك من طريق . واذا هي في حيرتها يظهر لها خطيبتها الأمريكي السابق والذي تركته في أمريكا ويجدد حبه لها ويعرض عليها السعادة فلا يزيدا هذا الا تمسكا بالواجب فتعود الى زوجها ازموند .

وهكذا نرى في هذه القصة التطور الجمالي « aesthetic » والاخلاقي « ethical » لنفس بشرية خلال مراحل مختلفة من الخبرات فوصلت الى اعلى درجات الفضيلة والتمسك بالاخلاق الكريمة والمبادئ، اذ على الرغم مما ينتظرها مع زوجها من تعاسة فهي لا تنسى واجبها تزوجة فتعود اليه .

واننا اذا عرضنا لطريقة جيمس في كتابة هذه القصة نجد انه قد لجأ الى اسلوب جديد وهو وجهة نظر الشخصية الرئيسية « point of view » . ففي الواقع ان هذه القصة هي اول قصة نموذجية اتبع فيها هنري جيمس الاسلوب الجديد new technique في اظهار الآراء والاحداث من خلال وجهة نظر الشخصية الرئيسية ، وليس على لسان الكاتب كراوي للقصة . كما ان بقية شخصيات القصة لا عمل لها الا ابراز الجوانب المختلفة للشخصية الرئيسية .

كما نجد ان جيمس قد تفادى التعبير المباشر واستعمل بدلا منه الایماء والرموز والاشارة . فنرى انه لم يقرر صراحة او مباشرة مبدأ « الحياة فوق الفن ولا فن بلا حياة » ولم يعرض آراءه وفلسفته بالطريق الخطابي كما سبق ان ذكرنا بل يترك القارئ يستخلص بنفسه تلك

التي تشدها حرية مثالية تنتهي بها الى الرغبة، لا في تحقيق الحرية في هذا العالم ، بل في التحرر من هذا العالم . وفكرة الحياة والموت هذه فكرة اصيلة في الاديب الأوروبي توارثها عن الفكر الإغريقي القديم. وقد ندد هنري جيمس في كتاباته بالاتجاه المادي في الحياة الغربية ودعا الى المحبة كأساس للعلاقات بين الناس . ففي رواية « رسائل اسبرن Aspern Papers » يعرض جيمس لعالمين ، احدهما يقسوم على المحبة السامية فبقي وخلص ، والثاني يقوم على النفعية التي يكون فيها الحب تجارة اساسها المصلحة الشخصية ، كملاقة الصحفي بالعانس حين تظاهر بحبها حتى يحصل عن طريقها على رسائل اسبرن الذي كان يحب عمتها حبا مثاليا خلده في اشعاره .

ومعظم قصص جيمس تدور حول حياة الأمريكيين في أوروبا. وفيها يعقد مقارنة بين الحياة الأمريكية الناشئة ببساطتها وسذاجتها وبين الحضارة الأوروبية العريقة الراسخة . وقد استطاع عن طريق ذلك ان يحقق ظاهرة طريقة نادرة . فادبه يتصف بطابع قومي وعالمي في نفس الوقت . وهو يحتفظ بخصائصه كروائي أمريكي عظيم في الوقت الذي اصبح فيه فنانا أوروبيا ممتازا . وكان كاتبنا يدرك هذه الحقيقة ، فقد كتب مرة يقول :

« انني لا انردد لحظة ان اؤكد انني احاول ان »

« اكتب بطريقة تجعل من الصعب على القارئ »

« ان يقول انني امريكي اكتب عن إنجلترا ، او »

« انجليزي يكتب عن أمريكا . »

وادب جيمس - في مجموعه - يصور الحياة في معركة ، الشر فيها قوي جامع ، والجمال ساحر نادر ، والخير فيها ضعيف عاجز ، والحماقة فيها اصرار وتحد ، والشر يسير الامور ، والسفهاء يحتلون المناصب العليا ، والعلاء المناصب الدنيا ، والانسانية ، في مجموعه ، ترزح في الشقاء .

ولكن العالم ليس وهما ولا خيالا ، ولا هو بحلم مروع نراه فسي نوما . انما هو يلاحقنا ، في ساعات يقظتنا ، ونحن عاجزون عن ان نتناساه او ننكره او نتخلى عنه . اننا نرحب بالتجارب التي نمر بها ونمنحها كل ما تتطلبه من طاقات مقابل شيء قد يكون ضئيلا او كبيرا بقدر ما نساهم في توسيع مجالات شعورنا . وفي هذا الشيء الجديد يختلط الفرح بالاسى لكن فوق كل هذا توجد قاعدة راسخة واضحة المعالم منها نتعلم كيف تكون لنا ارادة، وكيف نبحث عن البصيرة والحكمة. ان الفن وحده لا يكفي ، ولكن الهم هو ادراكنا للحياة واحساسنا بالاخلاق ، وتفهمنا للطبيعة البشرية .

هذا هو فن القصة عند هنري جيمس سقناه في ايجاز . وفيما

آخر منشورات دار الاداب

ق . ل

- | | | | |
|-----|---------------------|---------|-------------------|
| ٢٥٠ | اعباد | (قصص) | لعبد الله نيازي |
| ٢٥٠ | لا بحر في بيروت |) | لفادة السمان |
| ٢٥٠ | الظما والينبوع |) | لفاضل السباعي |
| ٢٠٠ | حتى يبقى العشب اخضر | | لاديب نحوي |
| ٢٠٠ | ثورة الفقراء | | لرجاء النقاش |
| | سلطنة الظلام في | | |
| ١٥٠ | مسقط وعمان | | لعوني مصطفى |
| ١٥٠ | كامو والتمرد | | ترجمة سهيل ادريس |
| ٤٠٠ | قصص كامو | | ترجمة عايدة ادريس |

نعومة أظفارهم . واول رحلة لجيمس كانت وهو ما زال طفلا رضيعا .
لم يكن النقد القصصي في عصر جيمس يعتمد على قواعد واسس
سليمة فوضع جيمس الاساس السليم للنقد الادبي الصحيح وكانت اهم
تلك القواعد هي :

اولا : لا خلاف بين القصة الواقعية والقصة الخيالية ، اذ ان
المفروض في الفن ان يمتد الى الواقع فيصقله ويمزج الواقع بالخيال .
ثانيا : لا خلاف كذلك بين القصة التي تعتمد على التحليل في
رسم شخصياتها *novel of character* وبين القصة التي تعتمد
على الحوادث *novel of incident* . اذ لا يمكن ان تستغني احدهما
عن الاخرى ويشبه هذا التلازم بالابرة والفتلة .

ثالثا : اهم ما في القصة عند جيمس ان تكون مسلية مشوقة
يعيش فيها القارئ ويشترك مع شخصياتها في انتظار ما سيأتي بعد.
رابعا : يرى جيمس ان مجرد الإيماءة او النظرة تتساوى مع الحادثة
المثيرة التي كان يعتمد عليها كتاب عصره . فمجرد جلوس امرأة في وضع
معيّن وتسرح بفكرها ونظرها كاف لديه لان يبني عليها قصة نعيش معها
فيما يدور بخلدنا، من افكار واحاسيس وتعاني مما تعانیه من مأس مرت
بها . فعندما اراد جيمس ان يبين لنا شقاء ايزابيل وما تعانیه من شقاء
وتعاسة في حياتها الزوجية لم يسرد لنا الحوادث التي مرت بها خلال
السنوات الثلاث التي مرت بها وانما جعلنا نعيش مع ايزابيل عندما
جلست امام المدفأة ذات ليلة وعادت بفكرها الى الوراء تستعرض ما مر
بها من مأس وانثرا وانطباعاتها عليها فانقلبت الينا واحسنا بالهوة
التي بينها وبين زوجها دون ان يذكر لنا شيئا من هذا كله صراحة .

وكان هذا الاسلوب بداية عصر جديد في القصة تبعه فيه كتاب
القرن العشرين *Dorothy Richardson* و *J. Joyce* و *Virginia Wolf*
وسمي هذا الاسلوب بـ « *Stream of concionsness* اي « توارد
الخواطر » .

عقيلة رمضان

القاهرة

سلسلة المسرحيات العالمية

١ - البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والحامي جلال مطرجي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٢ - ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٣ - هيروشيفا حبيبي

تأليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٤ - لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندلو

ترجمة جورج طرابيشي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٥ - تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد
الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات دار الآداب - بيروت

الاراء والفلسفة من تصرفات ابطاله وما يجري على لسانهم من احاديث
ومما يدور في القصة من وقائع . فنرى ايزابيل يتنابها شعور رهيب
حينما تنظ قدمها قصر زوجها اوزموند اذ تجد في قرارة نفسها ان دخول
هذا المكان يعني انه لن يسهل عليها - بعد ذلك - الافلات منه . وفي
موقف اخر ترى ابن عمها رالف في حديقته مستندا الى قاعدة تمثال
« *Terpsichore* » تصور احدى عرائس البحر ترقص في
انطلاق . وهكذا ترى ايزابيل الحرية والحركة في رالف وفي طريقة
الحياة التي يمثلها لانه يرى الحياة فوق الفن وتقارن تلك الحياة بحياة
الكلفة والوات التي يحيها اوزموند والتي يغلب فيها الفن المجرى على
الحياة الواقعية المناسبة . هذه الصورة الرمزية تلقن ايزابيل ومن
ورائها القارئ ، الدرس الذي يعنيه جيمس : « ان الحياة فوق الفن
او لا فن بلا حياة . »

كذلك نرى ان هنري جيمس لا يروي القصة كما كان يفعل الكتاب
الذين يقومون بدور الراوية بل لجا الى الطريقة المسرحية ينقل فيها
للقارئ صورة لمسرح الحوادث بدقائقه وتفصيلاته ثم يعرض بعد ذلك
لافكار واحساسات ابطال القصة عن طريق الحوار ويترك القارئ يعيش
معهم وفي عقولهم ويعسى باحساساتهم دون ان يفرض شخصيته هو او
رايه كما فعل ديكنز او تكري اذ كانا يعرضان على القارئ رأيهما وحب
شخصية معينة او كرها في حين كان جيمس يترك ذلك للقارئ يتخذ
الجاناب الذي يراه . ولهذا اتهمه كثير من النقاد - كما سبق ان ذكرنا
في اول المقال - بالجمود وراوا فيه رجلا يكتب بلا شعور ولا احساس
واعتبروه لذلك عقلا بلا جسد .

واذا ما وصلنا الى نهاية القصة لا نجد نهاية محددة انتهى اليها
جيمس بل يترك القصة تنتهي بلا نهاية محددة فكانه قد اقتطع القصة
من الحياة في فترة معينة كما كان يسميها *a slice of life*
- تنتهي بنهاية تلك الفترة الزمنية ويترك القارئ بعد ذلك يتخيل ما
يشاء من الجلول والنهايات . وقد ضابقت نهاية قصته «صورة سيدة»
قراء عصره اذ اخذوا يتخبطون في مصير البطله وما ستفعله وهل
ستستمر في حياتها الزوجية على ما فيها من تعاسة وشقاء وكراهية ام
ستهرب الى من يحبها وبعدها السعادة .

وعند تحليلنا للحوار نرى ان هنري جيمس اهتم به وكان يجريه
بمهارة ولباقة ويعتمد على الإيماءة او الاشارة فيحملها معاني ورموزا
تكشف عما يجري في عقل الشخصيات من عمليات فكرية ومشاعر
واحساسات . فنرى مثلا اوزموند يتناول فنجالا ، هو في الواقع تحفة،
فتنبه مدام ميرل لكي يحافظ عليه فيرد عليها « انه مشروخ بالفعل » .
وكانت هذه العبارة كافية لان يعطينا هنري جيس صفحات طوالا نعيش
خلالها في عقل مدام ميرل ونحن نقارن بين الفنجال المشروخ وماضيها
المعيب والحسرة على ما آل اليه حالها .

لقد عرف عن جيمس حبه العميق للرسم ولذلك نجد انه قد تأثر
كثيرا بذلك فجعل من كتاباته لوحات فنية يختار لها الفاظا وعبارات
لا يمكن الاستغناء عنها او استبدالها فيخرج عمله وحدة متكاملة كلوحة
معبرة تكون كلماتها فيها بمثابة اللمسات التي تزيد اللوحة جمالا وفنا
وتعبيرا . وهو اذ يفعل ذلك ينفس عما في نفسه ويرى فيه تحقيقا
لامنيته ان يكون رساما ولكنه فشل كرسام فموض شعوره بالفشل كرسام
وحققه ككاتب . وفي الواقع عمل جيمس فترة من الزمن في بداية حياته
ناقدا للرسم .

ولم يكن اختياره ودقته في انتقاء اللفظ صناعة بل كان اسلوبه
في الحياة الطبيعية فكان يتعثر في الحديث لمدة طويلة حتى يعثر على
الكلمة المناسبة « *le mot juste* » التي لا تحل محلها كلمة اخرى .
ونلاحظ ان ايزابيل وهي تواجه الحياة وتجاربها انما هي تمثل
حقيقة جيمس ونفسيته فلقد كان والده الفيلسوف المشهور يؤمن بترك
ابنائه يواجهون الحياة ويشقون لانفسهم الطريق الذي يرونه محققا
لامانيهم ، فلم يلحقهم بمدارس بل كان يحضر لهم المدرسين ويعتمد اكثر
ما يعتمد في تعليمهم على الاسفار يجوبون فيها الاقطار والامصار منذ